



من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطيئهم^(١) ونكيدهم جزاءً على مكروهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حثن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجلييلة المؤمنة «آسية» بنت مزاحم ﴿وقالت﴾ هذا الولد «قرة عين لي ولك لا تقتلوه» أي: أبقه لنا، ليقرّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقبه بمنزلة أعل من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونجله.

فقدّر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبه حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات

موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فإذا خفت عليه﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقيه في اليم﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ولا تخافي المرسلين﴾ فيشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجلييلة، وتقديم هذه البشائر لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى ﴿التقطه آل فرعون﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه، ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قبض الله أن يكون زعيمهم، يترى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبير والتأمل، تمجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديبات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أقراده، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى

شيئاً﴾ أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، ويتخذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذين له أن يكرمهم ويجهلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾ خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قلوبهم، ونخذل من ناوأهم. ﴿ونجعلهم أئمة﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلق بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، ﴿و﴾ كذلك نريد أن ﴿نري فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وجنودهما﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا ويغوا ﴿منهم﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة. ﴿ما كانوا يحذرون﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمراً سهلاً أسبابه، ونهج طريقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأول ذلك، بلا أوجد الله رسوله

(١) كلنا في ب، وفي أ: نعاقبهما على خطيئتهما.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هذا من شيعته﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾ القبط.

﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه موسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت الملكة والسلطان.

﴿فوكزه موسى﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾ أي: أماته من تلك الزكرة، لشدة قوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البيعة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ف ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإنبابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿قال﴾ موسى ﴿رب بما أنعمت عليّ بالتوبة والمغفرة والنعمة الكثيرة، فلئن أكون ظهيراً﴾ أي: معيناً ومساعداً ﴿للمجرمين﴾ أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿ف﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أصبح في المدينة خائفاً

منه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾

وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالتهم والنصح له، بادروا إلى إيجابتها، فأعلمتهم ودلّهم على أهل هذا البيت.

﴿فرددناه إلى أمه﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كي تقر عينها ولا تحزن﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ولتعلم أن وعد الله حق ﴿فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمّه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿ولما بلغ أشده﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿واستوى﴾ كملت فيه تلك الأمور، ﴿أتيناها حكماً وعلماً﴾ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.



[والمفاوضات] في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي: بما في قلبها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ فبستانها، فصبرت، ولم تبد به. ﴿لنكون﴾ بذلك الصبر والشباب ﴿من المؤمنين﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأخته قصيه﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] ﴿فصبرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله. ومن لطف الله بموسى وأمّه، أن

بترقب ﴿ هل يشعر به آل فرعون أم لا ؟ وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾ على عدوه ﴿ يستصرخه ﴾ على قبطي آخر . ﴿ قال له موسى ﴾ موبخاً له على حاله ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي : بين الغواية ، ظاهر الجراءة ، ﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ موسى ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ أي : له وللمخاصم المستصرخ ، أي : لم يزل الذجاج بين القبطي والإسرائيلي ، وهو يستغيث بموسى ، فأخذته الحمية ، حتى هم أن يبطش بالقبطي ، ﴿ قال له القبطي زاجراً له عن قتله ﴾ : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض ، قتل النفس بغير حق .

﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ وإلا ، فلو أردت الإصلاح خلعت بيني وبينه من غير قتل أحد ، فأنكف موسى عن قتله ، وارعوى لوعظه وزجره ، وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين ، حتى تراود ملاً فرعون وفرعون على قتله ، وتشاوروا على ذلك ، وقبض الله ذلك الرجل الناصح ، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأيي ملئهم . فقال : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ أي : ركضاً على قدميه من نصحه لموسى ، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر ، ف ﴿ قال يا موسى إن الملا بأثمرون ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ عن المدينة ﴿ إنني لك من الناصحين ﴾ فامتثل نصحه ، ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أن يوقع به القتل ، ودعا الله ، و ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل ، فتوعدّهم له ظلم منهم وجراءة .

﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أي : قاصداً بوجهه مدين ، وهو جنوبي

فلسطين ، حيث لا ملك لفرعون ، ﴿ قال عسى رب أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي : وسط الطريق المختصر ، الموصل إليها بسهولة ورفق ، فهده الله سواء السبيل ، فوصل إلى مدين .

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ مواشيهم ، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أي : من دون تلك الأمة ﴿ امرأتين تزدودان ﴾ غنمهما عن حياض الناس ، فعجزهما عن مزاحمة الرجال ويخلهمن ، وعدم مروءتهم عن السقي لهما .

﴿ قال لهما موسى ﴾ ما خطبكما ﴿ أي : ما شأنكما بهذه الحالة ، ﴿ قالنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ أي : قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، فإذا خلا لنا الجو سقينا ، ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي : لا قوة له على السقي ، فليس فينا قوة نفتقد بها ، ولا لنا رجال يزاھون الرعاء . فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فسقى لهما ﴾ غير طالب منهما الأجرة ، ولا له قصد غير وجه الله تعالى ، فلما سقى لهما ، وكان ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ، بدليل قوله : ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب .

﴿ فقال ﴾ في تلك الحالة ، مستزقاً ربه ﴿ رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ أي : إنني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي . وهذا سؤال منه بحاله ، والسؤال بالخال أبلغ من السؤال بلسان المقال ، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً .

وأما المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، وأخبرتاه بما جرى ، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى ، فجاءته ﴿ تمشي على استحياء ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة ، وخصوصاً في النساء .

ويدل على أن موسى عليه السلام ، لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة ، وإنما هو عزيز النفس ، رأت من

﴿ قال لصاحبي موسى الكحل وكمزأه وأمره بالمشي من جانب الظنور تكراً قال لأخيه أمتكراً إن ما أنتك تكراً لأعمل ، يترى منكم بغير أن يكون منكم الكحل الكحل تصطلحون ﴾ ﴿ فلما أتتها فرود من سبطي الواد الأيمن في البقعة تلك حكمت من الشجرة أن تمشي من أت أمة ربك العاليتين ﴾ ﴿ وأن أتي عساك فلما أتت أمة عساك أمة أمة ولي مديرا ولا تصعب بتومسني أقبيل ولا تخف إنك ربك العاليتين ﴾ ﴿ أنسك يدك في جيبك تخفج يشكك من غير مشورة وأنت من تلك حاكك من العصب فذلك هو مكان من ذوات آل رؤسك وملايينهم كانوا قوماً قبيحت ﴾ ﴿ قال رب إن قلتك وثمة نفساً فأنسك أن تقتلون ﴾ وأمر عذرتك هو أنصحتك في لسانك فأمرتك من ربه بالمشي مني في لسانك أن يمشي مني قال سكتك عصبك في الحية وتجعل لك سنانك فلا تصولن إلى كذا ولا ياباً سنانك من تحتك العاليتين ﴾

حسن خلقه ومكارم أخلاقه ، ما أوجب لها الحياة منه ، ف ﴿ قالت له : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ أي : لا ليمنن عليك ، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك ، فأجابها موسى .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه ، إلى أن وصل إليه ﴿ قال له مسكناً روعه ، جابراً قلبه ﴾ : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي : ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم ، حيث وصلت إلى هذا المحل ، الذي ليس لهم عليه سلطان .

﴿ قالت إحداهما ﴾ أي : إحدى ابنتيه ﴿ بإيات استأجره ﴾ أي : اجعله أجيراً عندك ، يرعى الغنم ويسقيها ، ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ أي : إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر ، من جمعهما ، أي : القوة والقدرة على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم الخيانة ، وهذان الوصفان ، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً ، بإجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما ، وأما اجتماعهما ، فإن العمل يتم ويكمل ، وإنما قالت ذلك ، لأنها شاهدت من قوة موسى عند



السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿قال﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثماني حجج﴾ أي: ثمان سنين. ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن العمالة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام - مجيئاً له فيما طلب منه - : ﴿ذلك بيني وبينك﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿والله

على ما نقول وكيل﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه!! ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ^(١).

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والوالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿سار بأهله﴾ قاصداً مصر، ﴿أنس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطور نارا﴾ قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ فلما أتاه نودي ﴿يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ فأخبره بالوحيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن

يأمره بعبادته وتألوه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾. ﴿وإن ألق عصاك﴾ فأنقأها ﴿فلما رآها هتفت﴾ تسمى سعيماً شديداً، ولها صورة مهيبة ﴿كانها جان﴾ ذكر الخيات العظيم، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أقبل﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ولا تخف﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إنك من الأمنين﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئن، واقفاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون^(٢) أجراً له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿اسلك يدك﴾ أي: أدخلها ﴿في جيبك﴾ فخرج بيضاء من غير سوء ﴿فسلكها وأخرجها﴾ كما ذكره الله تعالى.

﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. ﴿فذانك﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿برهانان من ربك﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، ﴿إلى فرعون ومثله إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت. ﴿قال﴾ موسى عليه السلام،

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

معتذراً من ربه، وسائلاً له المعونة على ما حمل، وذاكره له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها. ﴿رب إني قتلت منهم نفساً﴾ أي: ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ وأخي هارون هو أنصح مني لسناً فأرسله معي رداً. أي: معاوناً ومساعداً ﴿يصدقني﴾ فإنه مع تضايف الأخبار يقوى الحق فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي: نعاونك به وتقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي: تسلطاً، وتمكناً من الدعوة بالحجة، والهيبة الإلهية من عدوهما لهما، ﴿فلا يصلون إليكما﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أوبى العدو والعدو.

﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده، بعد ما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكثه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بيّنات﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء. ﴿قالوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعتاد: ﴿ما هذا إلا سحرٌ مفترى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعل على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور. ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ هذا، وهو الذكي غير الركي، الذي بلغ من المكر والخذاع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي: إذا لم تغد المقاتلة معكم، وتبين الآيات البينات، وأبينم إلا التماهي في غيكم وللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وقال فرعون﴾ متجرئاً على ربه، ومجهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون! حيث لم يقل: ﴿ما لكم من إله غيري﴾ بل تورع وقال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾. وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحمل أن ثم إلهاً غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ ﴿ها مان﴾: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ ليجعل له لبناً من فخار. ﴿فاجعل لي صرحاً﴾ أي: بناء ﴿لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها

وَمَا كُنْتُمْ بِعَالِمِي السَّمْعِ إِذْ قَسَمْتَ لَلسَّمْعِ أَنَّ السَّمْعَ لَأَنْزَلَنَاكَ مِنَ السَّمْعِ ﴿١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٣٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٠﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩١﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٢﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٣﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَاللَّهُ كَذَّابٌ أَثِيمٌ ﴿١٠٠﴾

أدعي، كذب موسى، وأدعي أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المديرين لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، ففسلك اللهم الشيات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الرهاب.

قال تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ فلذلك^(٢) تجزؤوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فأخذناه وجنوده﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فتبذناهم في اليم

(١) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فكذلك.

الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما يتفهم وما يضرهم، فتقوم الحججة على العاصي، ويستفح بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص، من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت

من الشاهدين﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق، ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمتناك وأوحينا إليك. ﴿وما كنت ثاوياً﴾ أي: مقيماً ﴿في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين، ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي: ولكن ذلك الخير الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويربهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك. والمقصود: أن الماخرجات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

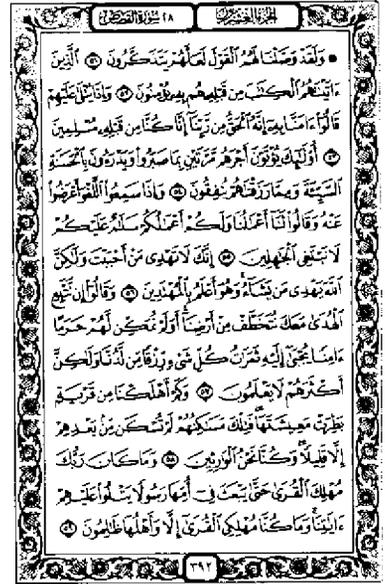
﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويربهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك. والمقصود: أن الماخرجات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحيث قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي تجر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد عُلِمَ وتيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

وانذاره للعرب لا ينبغي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلاً، ولغيرهم تبعاً، كما قال تعالى: ﴿أنا أنزلنا من السماء ماء فأنزلنا به نباتاً أولاً على الجبال فخرجت منه شجراً فأنزلنا من السماء حبوباً تنبت من أعينها﴾. ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً ففتح آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حججتهم، وقطع مقالتهم.

﴿فلما جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ﴿من عندنا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك ﴿قالوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة. أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً، فإنه ليس من عند الله. وأي: دليل في هذا؟ وأي: شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تفسيراً﴾. وأيضاً، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه،



فانظر كيف كان عاقبة الظالمين كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأبغناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: أبغناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من الملقوحين﴾ الملعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الإهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

الأمر، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملته، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها]^(٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتبونه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهجم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطمئن به نفسها، وتقرب به عينها، وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يميل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعتاد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعبا الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا يتبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوْ لِمَ يَكْفُرُوا بِمَا آتَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعارنا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببهتان، ويتقصرون بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابيين والرسولين، ولكن هل كفرهم بما طلبوا للحق، واتباعاً لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق^(١).

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء^(٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحْسَن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيئاته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتاصيلًا موافقاً، قصة قصاً، صدقاً به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قومًا جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على مَنْ مجرد خبره بنبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه يتبعه العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدق خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يدل] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يجيب مَنْ هذه حاله. كما خرج موسى لتقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياة - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفه الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف. ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل

أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يردده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتظليه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عد قتل القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتبويب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من الصالحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نعمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومخبراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقى بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداها، أنه

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تنزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿٥٢ - ٥٥﴾ الذين آتيناهم

الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا هم به. أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿وإذا يتلى عليهم﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخيبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق.

قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يجرون للأذقان سجداً﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أولئك﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني، ﴿بما صبروا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تززعهم^(٢) عن ذلك شبهة، ولا ثنأهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة، التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم ﴿يدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وإذا سمعوا اللغو﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي: كل سيجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سلام عليكم﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا نزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ من كل وجه.

﴿٥٦﴾ ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم

(٢) كذا في ب، وفي أ: يززعهم من.



بالمهتدين﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ فذلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادراً عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أباً طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ﴿وقالوا إن نزع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما أهلكنا من قرية

(١) في ب: الخيرة.

﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾ * أؤمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿هذا حصص من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاعتزاز بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبسنيين، والمأكول، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالتلغصات، مزوجاً بالغصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفتخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وما عند الله﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خير وأبقى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي: الأمور^(١) أولى بالإيثار، وأي: الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أؤمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالشواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من التعيم العظيم، فهو لاقية من

الأماكن، قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليخمدوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون. وتنبهوا هذا الرسول الكريم، لئتم لهم الأمن والرخاء، وإيهاهم وتكذيبه، والبظر بنعمة الله، فبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي: فخرت بها وألهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم العقوبة. ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيماشها من بعدهم.

﴿وكننا نحن الوارثين﴾ للعباد، نمتهم، ثم ترجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(٢) إلينا فنجازيم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حتى يبعث في أمها﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تحفى عليه أخبارها.

﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.



بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكننا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴿يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم، يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيئاً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ أي: أولم نجعلهم متمكين [ممكنين] في حرم يكثره المتابون، ويقصده الزائرون، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [و] لا كثيراً. والحال أن كل ما حولهم من

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم تفيدهم إلينا فنجازيمهم، وهو خطأ ظاهر من النسخ.

(٢) في ب: الأمرين.

يحييون به، ولو كان كذباً.

﴿٦٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالطلب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون * هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأمر، والأوامر، [والأزمان] والأماكن، وأن أحداً^(١) ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشرك، والظهير، والنعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتنه الصدور وما أعلنته، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وإليه

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشرك، مقرّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾ التابعون ﴿الذين أغويانا أغويانهم كما غويانا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تيرأنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أملت فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الخرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فدعوهم﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذّبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، [واتبعتموهم] أم كذبتموهم؟ وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يمحروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضوع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كمن تمتعنا معات الحياة الدنيا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تمتع البهائم، قد اشتغل بدنيته عن آخرته، ولم يرفع هدى الله رأساً، ولم ينتقل للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيتار.

﴿٦٢ - ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويانهم كما غويانا تيرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون * وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون * ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، بدواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبده ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

(١) في ب: أنهم.

(٢) في هامش أ: كل.

ترجعون ﴿ فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر .

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ * قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهذؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده .

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواظب الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبير، ومواضع الآيات، فتستتير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم .

وقال في الليل : ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار . وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وزن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال . وعمي قلبه عن الشناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً .

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ * ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملمو أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ أي : ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جرائتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم ^(١) لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي : بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال : ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يستمعون إلا السطن وإن هم إلا يخرصون﴾ .

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهيداً﴾ يشهد على ماجرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخين .

أي : انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبني؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية ^(٢)، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعلموا﴾ حيثذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حججهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها .

﴿٧٦-٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ إلى آخر القصة . يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] و[فعل] به ونصحه ووعظه، فقال : ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي : من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطفى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية . ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي : كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة [أولي القوة] والعصبة] من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك . أي : حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إذ قال له قومه﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان : ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي : لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكين على مجبتها .

﴿وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي : قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي : لا نامرك أن تنسق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرتك، واستمتع بدنالك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرتك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك بهذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال باليتم عن التمس، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافرأ لنعمة ربه - : ﴿إنما

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية .

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب .

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جشت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والحق والمطل. ولهذا قال: ﴿قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: لم تكن متحرراً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصديماً. ﴿إلا رحمة من ربك﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

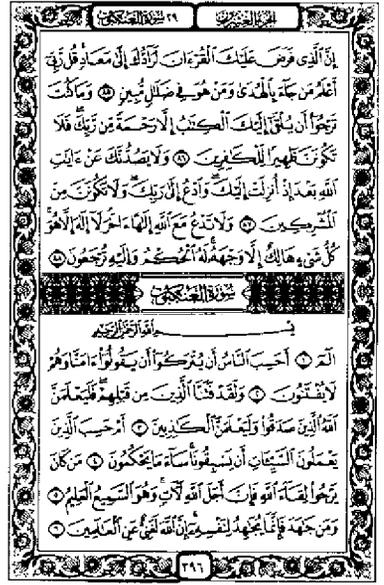
﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يمدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وادع إلى ربك﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

يغير تعالى عن مضاعفة فضله، وتعام عدله، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجرى بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق^(٢) عباده، ﴿فله خير منها﴾ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فله عشر أمثالها﴾^(٣).

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نهياً تحريم. ﴿فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ كقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.

﴿٨٥ - ٨٨﴾ ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله الهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيؤون بمعصيتهم.



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نجعلها﴾ داراً وقراراً للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والشكبر عليهم وعلى الحق، ﴿ولا فساداً﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدتهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والالتقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ ﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(١) في ب: حظ.